غروب شمس

للأستاذ حسن كامل الصيرفي

[مهداة إلى روح شقيقتي الوحيدة التي رجعت إلى ربها راضية مرضية].

تركت الدار موحشة الجناب ... ورحت وأنت في شرخ الشباب
دفنتك في التراب وكنت عندي ... أعز الخاطرين على التراب
وأودعت الثرى كنزاً ثميناً ... من الأخلاق والشيم العذاب
وغاب مع السكون الجهم صوت ... على نبراته يغفو اضطرابي
وغيب في ظلام القبر نور ... وخلف لي لهيبا من عذاب
يؤرقني غيابك من حياتي ... وما أقسى مرارات الغياب!
تلمست النجاة فرحت جسما ... طرى العود خفاق الإهاب
وعدت إلى لا نفس خفوق ... ولا روح يلطف من مصابي
ولو أني استطعت بذوب قلبي ... فديتك من أعاصير التباب
أنادي باسمك التالي، ولكن ... أراك عييت عن رد الجواب
وكنت إذا سكت ملأت نفسي ... بألوان الحديث المستطاب
أنادي ... والأنين رجيع صوتي ... وأهتف والجواب صدى انتحابي
وتغلبني الدموع ... وأي صبر ... يقر أمام دمع في انسكاب!
وأي مصيبة نزلت بساحي! ... وأي رزيئة وقفت ببابي!
وما بالعين أنكب افتقادي ... أعز الأقربين إلى اقترابي
فقدتك وافتقدت عزاء نفسي ... وكنت لي العزاء وقد خلا بي!

***

أراك - وقد أراك الموت حلما - ... بسمت فقد خلصت من العذاب
رؤى الدنيا كواذب خادعات ... وقد صبغت بألوان كذاب
نساق إلى مفاتنها، ونمضي ... مضي المصحرين إلى السراب
ونمشو كالفراش على شعاع ... جحيمي الحرارة واللهاب
نؤمل ما نؤمل ثم تطوى ... مع الإنفاس آمال خوابي
تعللنا بمطول الأماني ... وتمزج بالتعلة كل صاب
ونأخذ من يد الأيام كأساً ... تداول بالقديم من الشراب
نجرعه وليس لنا سبيل ... إلى الشكوى من الألم المذاب
وتسلبنا الأعز، وليس حرص ... بمانع كفها عن الاغتصاب
مضت بالأولين، وسوف تمضي ... بنا وبغيرنا من كل باب
نعيش وحولنا أهل وصحب ... ونحن من الحياة على اقتراب
وما حمل المرارة غير حي ... زواه الموت عن هذا الركاب
يشيع نفسه في كل حين ... وراء الراحلين من الصحاب..!

***

شقيقتي العزيزة! لست أدري ... أكنت خيال وهم في عبابي؟!
أسائل موج أيامي أكانت ... لياليها بها خفق الشهاب؟!
وكنا ناعمين على سبوح ... رخي الريح يمرح في انسياب
يوحدنا الحنان الجم حتى ... كأن رغاب نفسك من رغابي
فلم يعصف برحلتنا خلاف ... ولم نعرف لجاجات الشغاب
ولم يلمم بنفسينا خصام ... ولا خطرت بنا نسم العتاب
فمالك قد قطعت سراك منها ... وعوجل نجم عمرك باحتجاب؟!
وروع ليلنا الراهي بفجر ... دميم الوجه مهتوك النقاب
وهبت في الصباح الطلق ريح ... تسوق إليه داكنة السحاب
وزلزلت السفينة وهي تمضي ... تشق عباب أمواج غضاب
متكسة الشراع كأن نعشاً ... سرى في اليم ما بين اصطخاب
تمر بها العواصف معولات ... كأن سبيلها أحشاء غاب
وقهقهت المقادر وهي تبدو ... مسلحة بأظفار وناب
فألقى بي الأسى في غير وعي ... شريد الفكر مشدوه الصواب
أجوب الشاطئين غريب دار ... مطلسمة المعالم والشعاب
كأن نسيمها أنفاس جن ... وأن حفيفه صمت اليباب!
محا منها البشاشة هول يوم ... أساء إلى مغانيها الرطاب

***

شقيقتي العزيزة! أي خطب ... بليت به ولم يك في حسابي!
كتاب حياتك اختتمته بلوى ... فكان الرزء خاتمة الكتاب
طويل فصوله سنة وحلم ... سريع الخطو ومضى الوثاب
طواه الموت مختزماً عجولا ... كما يطوى الحديث بالاقتضاب
وكانت قصة القدر المعمى ... وكانت قصة الزمن المحابي
صبرت على متاعبها، وكانت ... شجونك في فؤادي كالحراب..

***

شقيقتي العزيزة! أي ذكرى ... معطرة سمت عن كل عاب!
حديثك في فم الأهلين شهد ... وبعدك عن ديارك كأس صاب